

قصر الصوف الأثري

د/ محمد الطيب عقاب
أستاذ محاضر
معهد الآثار- جامعة الجزائر

ملخص :

يعتبر قصر دار الصوف من أجمل المعالم التاريخية، لثرائه الزخرفي و أقسامه المتنوعة، فضلا عن تاريخه الحافل في العهد العثماني إلى الفترة الفرنسية مرورا بما استعمله التجار اليهود في شؤونهم التجارية. ولذلك خضع لعملية الترميم حديثا.

Resumé :

Le palais « DAR ESSOUF » est considéré parmi les plus beaux monuments historiques d'Alger: la diversité de ses espaces, la richesse de sa décoration et ainsi que son historiographie depuis l'époque Ottomane jusqu'à l'époque française ou il a été occupé par les commerçants juifs d'Alger, font de lui un des monuments phare de la ville d'Alger.

استهلال:

تعتبر مدينة الجزائر من العواصم التي احتفظت بمكوناتها العمرانية، العائدة إلى الفترة الزيرية والمرابطية والعثمانية، بالرغم مما أصابها من التهديم على أيدي الإدارة الفرنسية، حيث أزلت العصب الحيوي منها، والمتمثل في الجزء التجاري والإداري، ومقر الحكم للدولة الجزائرية ومعظم قصور رياس البحر، فعوضتهم بالعمارات والمراكز الإدارية، والساحات العامة فضلا عن توسيع الشارع الرئيسي للمدينة.

غير أن القسم الخاص بالحي الشعبي و جزء من الحي الإداري سلم من التدمير الفرنسي، ليس في إبقائها أو لأنها تمتاز بسحر التراث الإسلامي الممتاز بالرواء الفني، والإشراف السحري، بل لحاجة فرنسا لاستعمالها في أغراضها الإدارية والاجتماعية لضباطها في السلك الإداري على وجه الخصوص.

وهكذا سلمت بعض قصور ودور باشوات مدينة الجزائر، مثل قصر عزيزة بنت الداوي وقصر خداج العمياء وقصر حسن باشا وقصر مصطفى باشا، القريب من قصر الصوف، وقصر الحمراء، وهو آخر داي عرفته الجزائر قبل احتلالها من طرف فرنسا في سنة 1830 الموافقة لسنة 1246هـ.

موقع قصر الصوف :

يقع بالقرب من الحي الشعبي، غير بعيد عن المركز الإداري والاقتصادي للمدينة وكذا غير بعيد عن مقر الديوان.

تاريخ القصر:

بني على يد الداوي مصطفى باشا ، الذي تولى إدارة شؤون الجزائر سنة 1798 م، بعدما أزال بعض الدور والمساكن الموجودة في مكانه، رغبة منه لأن يكون قصره غير ملاصق لبقية المساكن المعروفة بنمطها المتضام، ورغبة منه أيضا في أن يربطه بقصره الشخصي عبر ساباط متقن البناء بالأقباء المتقاطعة الأضلاع. وقد مر القصر بعدة مراحل تاريخية، وحسب شجاعته وكبر حجمه يبدو أنه خصصة لحريمه، لما كان، يتمتع به من المرافق المتعددة في كل طابق، وكثرة الأجنحة فيه أيضا ، فضلا عن المنتزهات في الطابق العلوي الأخير .

ويبدو أن تسمية قصر الصوف قد ألصقت به بعد وفاة الداوي مصطفى سنة 1805 م، على يد الجيش الانكشاري، وتولية الداوي احمد مكانه، هذا الأخير لم ينتقل إلى أحد القصرين للداوي السابق، بل فضل أن يبقى في قصره، وهو الآن تحت إمرة إدارة المسرح الوطني. وحول قصر الصوف لاستضافة وفود البليات، الدين كانوا يأتون للداوي بالدنوش (الضرائب) المحصلة من السكان، ومنها الصوف، وهكذا _ حسبما يبدو _ أن التسمية جاءت من عملية تخزين الصوف بعد وفاة صاحب القصر.

وباحتلال الإدارة الفرنسية للجزائر اتخذ الجيش الفرنسي فندقا لقواده، ثم حول إلى محكمة الجناحات. ومع اندلاع الثورة التحريرية 1954 م حولته فرنسا إلى ثكنة عسكرية، لتوفير القصر على مخازن واسعة ودهاليز، تسمح لها لاستعماله لعدة أغراض.

وفي الفترة الاستعمارية تعرض القصر إلى كثير من التحويلات فقامت الإدارة بتجزئة القصر وغرفه إلى عدة غرف صغيرة، وإزالة نافورة الماء من فناء القصر، إضافة إلى استبدال الأعمدة الرخامية بأعمدة حديد الزهر، بدون تغيير

شكلها، حتى لتبدو لغير العارف بأنها الأصلية. وكانت التغييرات الكبيرة قد أدخلت على أجنحة المرافق الصحية التي أزيلت نهائيا، واستبدلت بما يناسب الثقافة الفرنسية.

وبعد خروج فرنسا من الجزائر سنة 1962 سمح للعائلات أن تسكنها، وهو ما زاد في تدهور القصر وتعليقه، بما أضافه السكان كل حسب رغبته في توفير أكبر عدد من المرافق بينما أجرت المخازن و السقيفة إلى الحرفين، وهم ما يزالون بها يزاولون نشاطهم الحرفي إلى اليوم.

ونظرا لأهمية هذا القصر وما احتواه من الأثر الفني والزخرفي والأحداث التاريخية التي تعاقبت عليه، قررت وزارة الثقافة تصنيفه في عداد المعالم التاريخية للجزائر سنة 1987، فجاء هذا التصنيف متأخرا بالمقارنة لأهميته التاريخية والأثرية والسياسية بالنسبة لتاريخ الجزائر. الأمر الذي جعل السلطة الوصية تقوم بإخلاء السكان عنه، والشروع في عملية الترميم سنة 1999، تكفلت به إحدى الشركات التي لها خبرة في هذا المجال، والتي تقوم بترميم قصر الباي بقسنطينة.

التعريف بصاحب القصر:

هو مصطفى باشا ابن إبراهيم، وهو ابن أخ الداوي حسن باشا. وتذكر المصادر التاريخية انه اتصف بالورع وحبه للأعمال الإنسانية والعمرانية، حتى انه اكتسب ود الشعب، كما انه بدأ حياته العملية تاجرا، فموظفا بسيطا بديوان إدارة الداوي حسن باشا، الذي هو عمه. ومع تقدمه في السن، وما أبداه في عمله الإداري، ارتقى إلى منصب خزانجي (وزير المالية حاليا)، ثم دايا للبلاد بعد وفاة عمه حسن باشا سنة 1798 (1212هـ).

وما ينسب له من الأعمال السياسية معاهدة الصلح مع أمريكا قبل أن يصبح دايا، وذلك بإنجازه لعدة أعمال إنشائية، بناؤه لبرج باب الوادي و برج رأس تافورة و قصر آخر فخم، بالقرب من المقر حاليا (قصر الشعب حاليا). قتل الداوي مصطفى سنة 1805م، بسبب الإمتيازات التي خصها لليهود في مجال التجارة على وجه الخصوص.

مكونات القصر المعمارية:

يتربع القصر على مساحة حددت ب709م²، وهو بذلك يعتبر أكبر قصر للدايات بداخل مدينة الجزائر، غير أن مظهره الخارجي لا يختلف عن بقية المساكن العادية، فهو بسيط للغاية، ليس به أي أثر للعمل الفني، ما عدا المدخل بظلته المدعومة بأعمدة محلاة بالزخرفة الرقشية، ذات النمط المعروف بالرقش الرومي، وبابه السميكة مزودة بدبابيس برونزية، مع عقد منكسر متجاوز محمول على عمودين حلزوينيين من الرخام الأبيض الناصع، بتيجان كورنثية النمط من العهد التتابعي (عصر النهضة). أما باقي الواجهات الأخرى فعارية من المعالجة الفنية إلا من الطنوف المحددة للطوابق، والروشن البارز في الواجهة الشمالية الشرقية.

ومدخل القصر يقع في الواجهة الجنوبية الشرقية، ينفتح على سقيفة أولى، خاصة بحاجب القصر، مزودة بباب مهيب، تقع خلفه السقيفة الكبرى، المعتبرة غرفة الاستقبال في القصر، إذ بها يستقبل صاحب القصر ضيوفه، لذلك يلاحظ على جنباتها المقاعد الرخامية مزودة بأعمدة ثنائية صغيرة حلزونية بتيجان كورنثية.

وقد حمل هذا التركيب المعماري على التشكيك في اتخاذ هذا المرفق كغرفة استقبال الضيوف، واعتبروه أمرا غريبا في المجتمع الإسلامي (ريمون/ العواصم العربية...72) على أن هذا القسم له تسميات مختلفة في بعض البلاد

العربية، فهو في تونس يسمى بالدريبة (روفلت/ قصور و إقامات...48)، وفي مصر بدرقاعه (الريحاوي/ البيت في المشرق...17). ولا تهتم التسمية بقدر ما تهتم الوظيفة، فكلها عبارة عن قاعات استقبال للضيوف، بغض النظر عن موقعها عن القصر.

والسقيفة في قصور مدينة الجزائر و مساكنها غالبا ما تقع في المستوى الأرضي، وغير مرتبطة بالبيوت التي تكون في الطابق الأول أو الثاني، لذلك تقع سقيفة قصر الصوف في المستوى الأرضي، وفوقها البيوت والغرف. (صورة 1)

الغرف:



الصورة 1 : نماذج للعناصر المعمارية والزخرفية

تمتاز غرف مساكن الجزائر و قصورها بمحدودية العدد، فهي غير معقدة، وعددها أربع غرف، أي واحدة لكل جناح، تمتاز بالاستطالة، يتوسطها باب معقود بعقد نصف دائري، مواز لإيوان الغرفة، الذي يختلف شكله وعمقه حسب أهمية الغرفة وظيفتها في الحياة العملية للقصر، فإذا كانت غرفة خاصة لصاحب القصر فإنه يكون عميقا بقبة فخمة، عليها زخارف من الجص بنمط الرقش المتطور عن الأسلوب العربي والمعبّر عن روح العصر في الفترة العثمانية، مر الاحتفاظ بهيأته التجريدية و بعده عن محاكاة الطبيعة،

وقلما ينتهي الإيوان بسقف مصنق ذي التصاوير الفنية المعبرة لمظاهر الطبيعة التي تمتاز بها الجزائر.

كما أن الغرف تنقسم إلى ثلاثة أقسام، جناحان يتناسبان للنوم و القسم الأوسط لتوظيفه في الأشغال اليومية المختلفة، بحكم مواجهته للرواق الذي يمدّه بالضوء. و فيما يخص تزويد الغرفة بالهواء وتجديده، شكلت شمسيات بحجم واحد، ولكن بتوزيع مختلف على الباب و النافذتين، ثلاث شمسيات فوق الباب، واحدة فوق كل نافذة، مع لإضاءة الإطار الفني عليها. (صورة)

وقد يحدث أن يقسم أحد طرفي الغرفة إلى قسمين علويين، لوضع الأثاث فيه، ممتد إلى ما خلف الغرفة الأخرى، التي يتصل بالغرفة نفسها. وهكذا تتشابه الغرف فيما بينها إلا واحدة منها في أغلب الأوضاع، حيث تزود بإيوان عميق الغور، متوج بقبة مزدانة بقشيبية من الزخرفة الجصية. (صورة 2)

تتقدم الغرفة أروقة محمولة على أعمدة من نمطين اثنين، حلزونية بكاملها، بالنسبة لأروقة الطابق الأرضي، ونصفية مضلعة في جزئها السفلي، وحلزونية في جزئها العلوي. والحكمة في ذلك ناتجة من تشكيل الصانع للدرازين الخشبي من التثبيت بالتطابق مع أضلاع العمود المسطحة، وبذلك يتحرر الصانع من استعمال المسامير لتثبيت الدرازين مع العمود، وهذا الاستعمال التطبيقي للصانع يشبه إلى حد ما عملية النقر واللسان لتشبيك المواد فيما بينها.



والدرازين في المسكن الجزائري، وبالأخص في مدينة الجزائر موحد النمط، قلما يخرج الصانع الفنان عنها، فهي مكونة من ثنائية التشكيل، تزاوج في وحدتها، الفراغ والشكل الزخرفي، فيعكس ظله على الأرض أثناء بزوغ الشمس وغروبها، لأنها الفترتين اللتين تجعلان العناصر الزخرفية تبدو مستطيلة ورائقة أيضا. ويزداد إطار الأروقة طلاوة وإشراقا بعقودها المنكسرة المتجاوزة، والتي ترسمت كعلامة مميزة في عمارة الغرب الإسلامي، مثلما أقره المرحوم فريد الشافعي، فهي تمتاز بعدة مراكز، بحيث جاءت مخصصة في أسفلها ومننفخة الوسط، وضامرة عند نهايتها، وهي ليست كالعقود الحدودية المتميزة بالاستدارة المطلقة (صورة 2).

الصورة 2 : أحد أروقة الدار

وتستغل جوانب الغرف الخلفية أو بعض الأجزاء منها للمرافق المعيشية والصحية، وهو ما لوحظ في قصر الصوف. وتلك المرافق امتازت سقوفها بالأقباء المتقاطعة، حرصا من الصانع على سلامة المبنى خاصة في المطبخ والحمام، اللذين كانا يتعرضان للمؤثرات المائية والمودية إلى تشويه السقف.

وثقل المرافق، كالحمام الواقع فوق المطبخ في معظم الحالات، رغبة في تريب توصيل المادة الضرورية لتلك المرافق كالماء و مجازات تصريفها و المداخل. و هذه كلها جاءت في قصر الصوف فوق الغرف خاصة في الجناحين الشرقي و الشمالي. (الصورة)

وقد استغل المستوى الوسطي، بين المستوى الأرضي وطابقه لاقامة المرافق الضرورية لخدمة القصر في الجهة الشرقية نظرا للمساحة المتوفرة خلف الغرفة، وهو ما يفسر عدم إهمال أية مساحة تلصق بالقصر وعدم تركها لتوسعة الطريق أي الحرص على استغلال كل الفراغات في الوظائف الحياتية للإنسان، و لذلك لوحظ أن بعض المرافق مدمجة بالقصر دون إهمال أحقية الشارع حسب أهميته في الحي.

ويتكرر هذا التصميم في الطابق العلوي مع انعدام المستوى الوسطي، غير أن الغرف في هذا الطابق تبدو أكثر رونقا من حيث تشبعها بالأثر الفني و الزخرفي، المزدانان بهما على القباب فضلا عن تشكيل حشوات أو جامات من الزخرفة الجصية النباتية المحورة مع إضافتها بالنطاقات المؤطرة لتلط الوحدات الفنية، سواء على القباب أو على أطر الأبواب و النوافذ، كل ذلك أضفى على الغرف وملحقاتها صورا مليئة بالإشراق والطلاوة مما لا يترك مجالا للشك أن

القصر كان لا يحمل اسم قصر الصوف في مرحلته الأولى لأن بقية القصور، سواء التي قبله أو بعده، لا تتوفر على مثل هذا الجانب الفني والثراء الزخرفي، إلا في بعض منها، وهي قليلة، ويمكن الإشارة إلى فصري عزيزة وحسن باشا. وينتهي قصر الصوف بمترهين (غرفتين) فوق بعضها، وهذا التركيب المعماري لمثل هذا المتره لا يوجد في غيره، مما يدفعنا إلى الشك أن الداي كان يراقب حركة البحر من خلال المتره العلوي، بينما المتره السفلي ترك لأهل القصر. والترهان عبارة عن غرفتين لكل منهما ليس بهما من المعالجة الفنية إلا العمودين الرخامين بتاجين كورنثيين وعلى جانبي الباب نافذتان مسيحتان بأعمدة من البرونز. ولا يمكن أن نترك الواحداث المعمارية للقصر دون الإشارة إلى استغلال نواة السلالم الضخمة، وجعلها عرفا صغيرة للتخزين، أو فتح مقاعد للاستراحة.

والترويح أثناء فصل الصيف، وهذا الاستغلال للكتل البنائية يتم عن إدراك البناء لقدراته في تشكيل واستغلال الفراغات البنائية لتوظيفها في الحاجات النفعية، بدل استغلال فضاءات الغرف التي فضل سكانها جعلها للأغراض الأخرى خاصة بسط الفرش الثمينة.

الأثر الفني في القصر:

الخشب : تتمثل مادة الخشب المادة الأساسية لزخرفة أبواب القصر ولم تترك العناصر المتوفرة فيه بدون زخرفة سواء التي بالخارج أو الداخل، كالأبواب و النوافذ وأبواب الخزائن الجدارية والدرابزين. وتقوم زخارف الأبواب الخارجية، وحول كواتها التي زينت بعناصر التوريق المعروف في العصر العثماني بالرقش الرومي، وكذلك على حواف الأبواب (صورة3). أما أبواب الغرف فيتم تشكيلها بواسطة تجميع قطع صغيرة متراوحة بين التريبع والاستطالة مع جعلها بحواف متدرجة، وهذا الأسلوب المتداول في الصناعة الخشبية والمعبّر عنه بالنقر واللسان أو التعشيق ومن خلال تقاطع تلك القطع المختلفة الشكل والحجم شكل الفنان الصانع بداخل كل منهما رمز معين في الشكل المستطيل، وعلى المربع زهرة الزنبقة.



الصورة 3 : مطبخ الدار والعناصر المعمارية

كما تتكرر نفس الزخرفة الرقشية من شد في العروق والسيقان على أطراف أبواب الغرف مع الحرص في تشكيلها المحافظة على التناظر والتقابل أو التدابر بصورة تثير الإعجاب، بحيث نلمس من خلالها الدقة والرشاقة مع بعض التعقيد أو التزاحم في هذا العصر المتأخر في الحضارة الإسلامية، وهو الأسلوب المعروف في الفن الإسلامي منذ ابتعاد الفنان المسلم عن محاكاة الطبيعة، وكأنه يعبث بها، ولكن بشئ من التناغم والاتزان والتمثل، وهو ما انتبه إليه الباحثون فيما بعد، وأدركوا بعد الفنان المسلم في صياغة عالم الطبيعة بما يشبه العناصر الهندسية وكأنها نوتات موسيقية في اتزانها وترتيبها الصوتي، لما أظهره الفتات من وضوح في في جمالية الزخرفة الإسلامية لعناصرها التوريقية وأغصانها وسيقانها الملففة حولها شيء في رشاقة وإتقان.

فإذا سرنا مع الوحدات المذكورة وجدنا نفس الزخرفة تتكرر في الدريزين وأبواب الخزائن مع مراعاة المساحات المحددة لملئها بالثنائية المعروفة والانزان المعروف أيضا، حتى وإن اتخذ الفنان عدة أشكال سواء منها المربعة أو المستديرة، فهي كلها حفرت وخرطت وكونت من سيقان ورقة الأكتنا أو من سيقان أزهار القرنفل، وهذه الأخيرة نالت عند الجزائريين في العهد العثماني حظوة كبيرة حتى طبعت الزخرفة التصويرية والمجسمة بها، غير أن هذه الزخرفة تزاوجت مع العناصر الهندسية في أشكال هندسة خاصة النجمية منها، أو بعناصر من فصيلة التويجات البرعمية بعيدانها الرشيق ذات التكوينات المتراوحة بين الضمور والانتفاخ بينها حلقات بارزة و غائرة.

وإن هذا الإفراط في الزخرفة ليس ما جسم على الألواح و لكن ما نتج عنها من الفراغات المتطابقة لتلك العناصر فتسقط عليها أشعة الشمس مرتسمة على الأرض شكلها المعكوس يسر الناظرين، وإذا كانت الزخارف الخشبية المذكورة تتطابق مع ما وجد في بقية القصور الأخرى فإن الزخرفة الجصية بقصر الصوف أرادها صاحبها أن تكون فريدة، لا تضاهيها أية زخرفة في بقية القصور، وإن كانت لا تخرج عن نطاق الزخرفة الخشبية التي هي عبارة عن سيقان ملفنة حول نفسها في اتجاهات متعاكسة، مع ما يبرز عنها من فصوص محورة أو أوراق من نفس النمط غير بعيدة عن نمط الفن التتابعي لعصر النهضة الأوربي بحكم استغلال الأسرى المسيحيين المسخرين في مختلف الأعمال المعمارية والعنائرية، والذين كانوا في سجون الجزائر، وهو ما سمح للباشا من توسيع دائرة الزخرفة على كامل غرف القصر و خاصة على القباب، ووضع جامات وحشوات من نفس الزخرفة في بعض الناطق المكشوفة لجدران الغرف _صورة_ واستمر الباشا أيضا في استعمال نفس الزخرفة في قصره الكبير بفحص المدينة، بل بشيء من الفخامة والإطراء الفني حتى أصبحت ضاحية هذا القصر تعرف باسمه غير بعيدة عن مقر رئاسة الجمهورية حاليا _صورة_.

ويمكن الإشارة _باقتضاب_ إلى ما زخرف به القصر بالمربعات الخزفية التي تنسب كلها إلى بلدان أوربية خاصة منها هولندا _صورة_ يغلب عليها عنصر الأكتنا أو موضوع زخرفي يشمل عناقيد العنب أو فرخ الطاووس أو عناصر أخرى _صورة_.

وتعد زخرفة قصر الصوف بمختلف موادها نموذجية بالنسبة للمساكن في الجزائر تقريبا و هذا ما يجسد فكرة التوحيد العملي الموحي بوجود إطار رسمي يضبط إتقانها طبقا لما تمليه الإدارة الضبطية في ذلك الوقت.

بداية ترميم القصر:

شرعت محافظة الجزائر في ترميم القصر مع بداية سنة 1999 دون الرجوع إلى ذوي الاختصاص، فكان لابد لشخصي أن يتدخل وفق المعايير العلمية حرصا على توفير الجو المناسب لذلك وخاصة إعداد الملف التاريخي ووثائقه المادية التي تسمح بإعادة شكله العام.

وهو ما تم _فعلا_ إعداده بعد البحث في مختلف دور الأرشيف والمكتبات، إذ تمكنت من العثور على بعض الصور القديمة التي ترجع إلى العهد الفرنسي قبل نهاية القرن التاسع عشر. وبيّنت للمرممين هيئة القصر وأبوابه الأصلية، أما زخارفه فكانت كما هي عليه الآن. كما ساعدت إدارة الترميم على معرفة مكونات المونة التي بني بها القصر والملاط المغطي به أيضا، ولكن لوحظ بعد ذلك صعوبة إعادة تركيب هاتين المادتين مما دفع بالمرممين إلى إضافة مادة الإسمنت.

حتى تكتسب الجدران صلابتها مع المحافظة على اللون الأصلي للقصر، وكانت بداية الانطلاق في عملية الترميم الشروع في كشط الجدران لضبط ومعرفة مراحل البناء والتغيرات المدخلة على القصر على عهد الفرنسيين حتى تبدو الأقسام الأصلية من المستحدثة.

إزالة المواد المهترئة خاصة الخشب في مناطقه السقفية مع احترام إعادة تركيبه كما كان سابقا. وهذه العملية سمحت للمرممين وللطلبة والباحثين من معرفة مكونات القصر في مختلف تركيباته البنائية، كما سمحت لهم أيضا بالإطلاع على المواد المسترجعة وخاصة منها المواد الفخارية المشوهة والتي لم ترم في أماكن أخرى بل وضعت ضمن مختلف طبقات السقف، وهذا ما يدل على تنوع الصناعة التطبيقية والفنية للجزائر.

وقد أعاد الفنيون التنظيم الأصلي للقصر مع الحرص على تطبيق دقائق المعالم الفنية التي كانت على المواد البنائية واسترجاع المواد القديمة، مثل البلاطات الخزفية. غير أن العائق الأكبر في ترميم القصر هو عدم وجود إطار كفؤ في معالجة الزخرفة الجصية التي سقطت منها بعض البصمات الفنية، رغم وجود مدرسة الفنون الجميلة بالجزائر وقد شددت على المسؤولين أن لا يمسوها ريثما يتوفر من يستطيع رسم معالمها.

وقد عيبت على الصناع تنوع استعمال مواد البناء في بعض أجزاء من القصر لاعتقادهم أن الملاط يغطيها. ومع ذلك فإن ما تم من ترميم في القصر ينبئ في مجمله على سلامة العمل مثلما تبينه صورة غير أن تباطؤ العملية من شأنه أن يعرض القصر إلى التشوية بفعل التغيرات الجوية وخاصة في فصل الشتاء حيث تكون الأمطار غزيرة في بعض الأحيان.

